قضايا العالم العربي والإسلامي ومستقبله في فكر مالك بن نبي (رؤية استشرافية)

Issues of the Arab and Islamic world and his future in Malek Bennabi thought (foresight vision)

أ.د. قدادرة شايب

جامعة 8 ماي 1945– قالمة (الجزائر)

Chaibkedadra21@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2024/04/06 **تاريخ القبول: 2024/05/22**

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية أفكار أحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، ويتعلق الأمر بآراء المفكر الجزائري مالك بن نبي في مسائل وقضايا تخص العالم العربي والإسلامي، وهذا من خلال تشخيص أهم مشكلاته الحضارية، مع صياغة آليات النهوض واستئناف دورتة الحضارية الجديدة وفق رؤية استشرافية، فهو يعدّ أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبّهوا واهتموا بمشكلات الحضارة، وقد عايش مالك بن نبي فترة عصيبة من تاريخ العالم العربي والإسلامي، والتي تزامنت مع الحركة الاستعمارية التي مسّت هذا العالم حيث مكنته من تشخيص الأوضاع وتحليل ماهو كائن في العالم العربي والإسلامي، وما سيكون عليه مستقبلا، وفق رؤية استشرافية حدّدت معالم الطريق لاسترجاع الحضارة المفقودة وآليات تجديدها.

الكلمات المفتاحية: الاستشراف، العالم العربي، العالم الإسلامي، مشكلات الحضارة، بناء الحضارة، القابلية للاستعمار، الثروة الاجتماعية.

Abstract:

This research paper treats the ideas of one of the Islamic intellectual renaissance pionees in the twentieth century, it is about the Algerian thinker Malek BENNABI in issues and affairs related to the Islamic and arab words, through diagnosing the most important civilization problems, with setting up mechanisms to stand up and resume its new civilization cycle, according to an emerging vision, he is considered as one of the contemporary thinkers who alerted and

cared about the civilzation problems,malek BENNABI coexists a difficult period of the Islamic and Arab world which coincided with the colonial movements in the world ,this enabled him to diagnose the situation and analyze what exists in the Islamic world and what will be in the future,according to a foresight vision,which determined the path to recover the lost civilization and the mechanisms of its renewal .

keywords: Foresight, Arab world, Islamic word, Civilization problems, Civilization Building, Colonialisability, Social wealth.

مقدمة:

كم نحن اليوم بحاجة ماسة إلى إعادة الاعتبار لفكر مالك بن نبي أو كما ينعته البعض بابن خلدون الثاني، وهذا بحكم أنّ فكره الحضاري لم يستثمر بعد بالشكل المطلوب، وأنه لازال بكرا قادرا على إفادة الأمة من أجل علاج مختلف الأزمات والآفات التي مازال العالم الإسلامي يتخبط فيها، ففكر مالك بن نبي فكر متجدد، فهو يبحث في أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا، لذلك نجده يجيبنا في مؤلفاته عن أسباب تخلف الأمة وأسباب نهضتها وآليات إصلاح وتغيير واقعها.

وبالنظر إلى حال مجتمعات العالم العربي والإسلامي اليوم، نلاحظ أنه تواجهه أكثر من مشكلة داخلية وخارجية، فهو أمام تحديات كبرى على صعيد الثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، رغم توفر كل عوامل النهوض وبناء الحضارة.

أصبح تصنيف المجتمعات اليوم يخضع إلى مدى تحركها التاريخي ومستوى التغيير الحاصل في العديد من جوانبها الحياتية، وهذا من أجل مسايرة حركة الفعل الحضاري في الواقع الإنساني العالمي، وهذا ما أشار إليه بن نبي في سياق حديثه عن الحركة والتغيير الذي يرتبط بـ "الإرادة الحضارية" المتطابقة مع الآية الكريمة ﴿إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1].

وإذا ما رجعنا إلى علم المصطلحات، نجد أن مالك بن نبي قد تفرّد في هذا الباب من خلال تأسيس مفاهيم ومصطلحات فكرية وفلسفية، لم تستخدم من قبل مفكرين سابقين لزمانه، ومن أمثلة على ذلك نذكر: **القابلية للاستعمار، الدورة الحضارية، شبكة العلاقات**

الاجتماعية، المجتمع التاريخي، إنسان الحضارة، وغيرها من المصطلحات التي سنوظفها في هذه الدراسة.

والمتمعن في الانتاج الفكري لمالك بن نبي نجد أن جلّ مؤلفاته تصبّ في جانب واحد، يتعلق الأمر بمشكلات الحضارة وصنع الحضارة لدى المجتمعات في سياق منهجي ومعرفي يصور كيفية استئناف البناء الحضاري، وتحقيق الشعور الحضاري مرة أخرى، وبخاصة في مجتمعات العالم العربي والإسلامي.

من هذا المنطلق فإن إشكالية هذه الورقة البحثية تدخل في هذا الإطار، من خلال ضبط مالك بن نبي لجوانب هذه المسألة وفهمها (مشكلات الحضارة)، وتقديم مساهمة تحليلية مرفقة بالمخارج والحلول للنهوض من جديد بمجتمعات العالم العربي والإسلامي وتجديد حضارتها، وللإجابة على هذه الإشكالية، قمنا بتقسيم هذه الورقة البحثية إلى ثلاثة محاور رئيسية هي:

1- التأصيل التاريخي لمصطلح الاستشراف.

2- القضايا الأساسية في فكر مالك بن نبي.

3- النظرة الاستشرافية لمالك بن نبي في معالجة مشكلات العالم العربي والإسلامي.

وقبل الخوض في حيثيات هذا الموضوع، أردت أن أوضّح بأن هذه الورقة البحثية لا تمثل دراسة مستفيضة لهذا الموضوع، وإنما تمثل حلقة من حلقات هذا البحث المتشعب لذلك بداية افتح قوسا يخص التأصيل التاريخي لمصطلح الاستشراف.

أولا: التأصيل التاريخي لمصطلح الاستشراف:

إنّ الاهتمام بالمستقبل يعتبر شيئا مميزا وسمة بشرية ظهرت منذ فجر التاريخ، حيث نجد أن الإنسان اهتمّ بمعرفة ذاته ومكانه في الحياة ومصيره ومستقبله، ونجد ذلك واضحا في الحضارات القديمة التي سعت إلى تطوير وسائل منطقية للتنبؤ بتطورات المستقبل، ففي حضارة وادي النيل ابتدعت مراكب الشمس، وحنطت الأجساد، وبرز علم الفلك، وفي اليونان القديمة قام الإغريق بحفر ونقش الصخور من أجل الأجيال القادمة، كما ظهرت معابد الوحي من أجل سبر أغوار المستقبل، نفس الاهتمام كان في الحضارات الأخرى كبابل والهند والصين والمايا والأزتك[2].

وقد انتقل هذا الاهتمام بالمستقبل إلى الفلاسفة والعلماء الذين قدّموا تصورات معينة للتنبؤ بالمستقبل، ومن بينهم الفيلسوف اليوناني أفلاطون من خلال أطروحة "الجمهورية الفاضلة" وقد وصف التنبؤ بالمستقبل بـ "أسمى الفنون"[3]، كذلك حاول القديس أوغسطين التنبؤ بالمستقبل عبر بناء نموذج مثالي يتضمن فكرة وجود مدينتان: أحدهما مدينة الله المبنية على أساس من الفضيلة والمحبة، والأخرى هي مدينة الإنسان القائمة على الغرور والشر وافترض أن النصر سيكون حليف المدينة الأولى، وعلى أن الناس يسعون إلى تحقيقها[4].

إلى جانب هذا نجد أن التنبؤ بالمستقبل كان حتى في زمن الأنبياء المؤيدين بالوحي فسيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام كان يخبر اليهود بما لا يعلمون من شؤون المستقبل كجزء من الرسالة السماوية التي جاء بها؛ وقد عبّر القرآن الكريم بوضوح عن خاصية التنبؤ للمسيح عليه السلام عندما قال: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾[5].

بناءً على هذه الآية –والكثير منها في القرآن الكريم–، يمكن استنتاج فكرة جوهرية أن معرفة المستقبل وظيفة مهمة وحاجة ضرورية لتحقيق الأمن النفسي والاستعداد لما هو أسوء.

وفي الفترة الحديثة كتب الطبيب الفلكي الفرنسي ميشيل نوسترادموس (1503–1566) كتابه (تنبؤات نوسترادموس) وكان هذا عام 1555م، وقد ضمّ معلومات مستقبلية تخص أوروبا والعالم بشكل عام، كما برز فيما بعد العالم الاقتصادي الانجليزي توماس مالتوس (1766–1843)، وكذلك الروائي الفرنسي جون فيرن (1828–1903)[6].

وبالتالي ثمة توجه جديد لاح في أفق الحضارة الإنسانية، إنه علم استشراف المستقبل وهو ليس انتهاكا لستر الغيب كما يدّعي البعض، أو أنه مجرد تخمينات عبثية لاطائل منها، أو أنه هاجس الفضول الذي يستحوذ علينا للإطلاع على الغيب، أو التجسس على المجهول[7] كما أنه لا يمثل التكهن بتفاصيل الأحداث المستقبل لكل فرد منا، ولا حتى للمجتمع أو الإنسانية ككل، كما أنه ليس تنجيما، إنما هو مهارة عملية تهدف إلى استقراء التوجهات العامة في الحياة البشرية، التي تؤثر بطريقة أو بأخرى في مسارات كل فرد وكل مجتمع[8].

إنه علم يدرّس، وله قواعده وأصوله، كما أن له خبراؤه ومن يختص به، لننتفع من عقولهم النيرة الكثير، وننهل من معارفهم ما ينور بصيرتنا، ويهون علينا السير إلى المستقبل فالمسألة ليست من قبيل الترف الفكري، ولا جلسات نقاش يتم تداول توصياتها علىً نطاق ضيق، بعيدا عن اتخاذ قرارات حاسمة في هذا المجال، إنما هي مظلة تجمع تحتها العديد من المختصين في هذا الشأن[9].

لقد تمّ توظيف العديد من التسميات والتعبيرات للدلالة على مضمون هذا العلم بداية من القرن العشرين، من قبل علماء ومفكرين ينحدرون من فروع مختلفة في العلوم الاجتماعية؛ ومن هؤلاء عالم الاجتماع الأمريكي غلفين Gilfillain الذي استخدم مصطلح لاتيني "Mellontology" في مقال له عام 1907، وكان يعني به أحداث المستقبل[10]، ثم ظهرت العديد من المصطلحات الدالة على انبثاق الدراسات الاستشرافية إذ ثمة اتفاق على أن أوسيب فلخت (Ossip Flechtheim) الألماني هو صاحب مصطلح علم المستقبل (Futurology)، وقد ظهر المصطلح عام 1943[11]، وكان أوسيب من أكثر علماء السياسة المنادين بدراسة المستقبل في هذه الفترة العصيبة من تاريخ العلاقات الدولية.

أما بالنسبة لمساهمة المدرسة الفرنسية في إثراء الإطار المفاهيمي لعلم الاستشراف فكانت على يد العالم السياسي بيرتراند جوفنيل (Jouvenel de Bertrand)، الذي وضع تسمية مختلفة نوعا ما لهذا العلم وهو "المستقبلات الممكنة" (futuribles)، وتتكون من شقين الأول (futures) ويعني المستقلات والثاني (possibles) ويعني الممكنة[12]، ويؤكد في كتابه فن التكهن (The Art of Conjecture) أن الدراسة العلمية للمستقبل فن من الفنون وليس علما من العلوم[13].

بينما ينسب إلى العالم غاستون بيرجيه" (Gaston Berger) مصطلح "الاستشراف" (Prospective) في سياق الدلالة على التطلعات نحو المستقبل والتخطيط له بطريقة أو بأخرى، كما عرّفه "آلن غراس" Gras Alain بأنه تأمل للحاضر ووضع بدائل للمستقبل من شأنها أن تعطينا صورة عن مجتمع الغد[14].

ويعرّف"كورنيش" الاستشراف بأنه العلم الذي يرصد التغيير في ظاهرة معينة، ويسعى إلى تحديد الاحتمالات المختلفة لتطورها في المستقبل، وتوصيف ما يساعد على ترجيح احتمال على غيره[15].

وبالتالي لايمكننا فهم الدراسات المستقبلية بمعزل عن كونها علما، كما أنه لا يمكننا افتراض ابتعاد الدراسات المستقبلية عن العلوم المختلفة، فهي مكملة لبعضها البعض وتربطها علاقة تشاركية وتداخلية.

هذا كل ماله علاقة بتحديد المدلولات وفق أصولها ومفاهيمها، حيث أن هذا المصطلح كان وما زال عرضة للبحث والدراسة، وقد أخد أبعادا واسعة في الدراسات الأكاديمية.

ثانيا: القضايا الأساسية في فكر مالك بن نبي:

ولد المفكر مالك ابن نبي[16] في ظرف استثنائي تميز بسيطرة وشيوع الظاهرة الكولونيالية (الاستعمارية) في العديد من أقطار العالم الاسلامي، وهذا ما أثّر في أفكاره فيما بعد، هذه الأفكار التي انبثقت في ظل هيمنة الاستعمار الغاشم، فالمشكلات والقضايا الأساسية التي تواجه العالم الإسلامي هي تلك المشكلات التي ركزّ عليها "مالك بن نبي"، وفي مقدمتها مشكلة (الحضارة)، ومشكلة (النهضة)، ومشكلة (القابلية للاستعمار)، ومشكلة (الثقافة والأفكار)، ومشكلة (شبكة العلاقات الاجتماعية) و(ميلاد المجتمع المتحضر)، وهي في إطارها العام مشكلات الحضارة، العنوان الذي اختاره مالك بن نبي لتأطير كل مؤلفاته وأبحاثه، وذلك انطلاقا من قاعدة «إنّ مشكلة كلّ شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها»[17].

1- الانسان عنصر رئيس لأيّ مشروع حضاري:

يعتبر العامل البشري عنصرا مهما في فكر مالك بن نبي وهو محور اهتمامه في كل أعماله الفكرية، إذ لا يمكن أن نتناول قضية من القضايا التي عالجها إلا وكان العامل البشري هو العنصري المركزي فيها أو على الأقل كان لتلك القضية ارتباط به، والسبب في ذلك أن العامل البشري –في رأي مالك بن نبي– هو مصدر نجاح أي مشروع بشري في

التاريخ أو فشله، على مستوى الفرد أو المجتمع، ولهذا فهو يؤكد أنّ الإنسان هو الوحدة الأولى التي تكون المجتمع، فإذا تحرك تحرك معه التاريخ وإذا توقف توقف معه أيضا[18].

انطلاقا من هذا الاعتبار، يصبح الإنسان – في رأي مالك بن نبي – العنصر الرئيس لأيّ مشروع حضاري إلى درجة اعتباره الأداة والهدف في آن واحد[19].

لذلك فإن إنجاز أيّ مشروع في الحياة البشرية، إنما يتوقف كليا على مدى فعالية الإنسان في التوظيف الإيجابي والفعال للإمكان الحضاري الذي جعلته الإرادة الإلهية بين يديه، سواء على شكل استعدادات نفسية وفكرية تنطوي عليها شخصيته، أم ثروات طبيعية مودعة في الكون[20].

كما أنه لا يمكن الحديث عن الإنسان دون أن نتطرق لمسألة التربية كأداة حاسمة في إعداد الإنسان وتأهيله ليندمج في المجتمع اندماجا منسجما، ومن ثم يضطلع بدوره الاجتماعي المنوط به ويستجيب لمتطلبات الأداء الناجح لوظيفته التاريخية، وبناء على هذا يعتقد مالك بن نبي أنه من خلال التربية يصبح الإنسان عاملا لبناء الحضارة[21].

2- الفكرة الدينية:

تعتبر الفكرة الدينية عند بن نبي قصية مركزية، والسبب في ذلك هو رؤيته الخاصة لمركز الدّين في الحياة البشرية والكون بشكل عام ،هذه الرؤية نابعة من فهم خاص تميز به مالك بن نبي للدّين باعتباره ظاهرة كونية تحكم فكر الانسان وحضارته[22].

فلا يمكن تناول مشكلة من مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة بمعزل عن دور الدّين كعامل تأثير محوري فيها،فالطروحات التي تتناول هذه المشكلات من منظور لايستند إلى الدّين فيها كعامل أساسي، فهي تحمل بذور فشلها وإخفاقها في ذاتها، لأنها خالفت القانون الكوني الذي يتحكم في الحياة والأحياء[23].

ومن هذه الزاوية يشير "بن نبي" إلى أن الدّين هو التعبير التاريخي والاجتماعي عن التجارب المتكررة خلال القرون، فهو يعد في منطق الطبيعة أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى وأن التغيرات الكبرى في التاريخ إنما تحدث بفعل الدور الذي تقوم به الفكرة الدينية[24].

ويضيف أنه كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية[25].

3- فكرة القابلية للاستعمار:

تناول "مالك بن نبي" مشاكل الحضارة بشكل عام ومشاكل العالم الإسلامي بشكل خاص، فقد ركز على مسألة مهمة مرتبطة بالمفاهيم، ومن أبرز هذه المفاهيم مصطلح القابلية للاستعمار، الذي عشعش في ذهنيات المجتمعات المتخلفة، حيث اعتبرها خاصية تختص بها تلك المجتمعات.

أشار "مالك بن نبي" إلى هذه الظاهرة في عدد من كتبه، وكان هدفه من وراء ذلك رفع الخلاف الذي ساد بين المثقفين المسلمين حول أيهما أصل للآخر الاستعمار أم القابلية للاستعمار، وأمام هذا الوضع فهو يرى أن هناك حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن نواظرنا، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار، بل بالقابلية له[26].

من هنا نفهم حسب مالك بن نبي، أنه لاينبغي أن نرد ما يعيشه المسلم من تخلف وتوقف وهامشية وتبعية وإفلاس مركب إلى الاستعمار، وإن كان له دور لايستهان به في تعميق وترسيخ المشكلة، فهو يرى ضرورة تتبع التطور التاريخي للظاهرة الاستعمارية وأصولها التي ساهمت في إيجادها، أي أن ندرسها بوصفنا علماء اجتماع لابوصفنا رجال سياسة[27].

وبناء على هذا فإنه يرى أن مركّب القابلية للاستعمار، يمثل وضعية نفسية تربوية يكون الانسان فيها مستعدا لأن يُستعمر بصرف النظر عن شكل ونوعية هذا الاستعمار وبعبارة أخرى عجز الإنسان عن تخليص نفسه من الاستعداد لأيّ شكل من أشكال الهيمنة والاستغلال[28].

وبالتالي فكرة القابلية للاستعمار والتي تعتبر أهم الأفكار السياسية على الإطلاق لدى المفكر مالك ابن نبي، تجعل البعض يتساءل لماذا التركيز على هذه الفكرة بالذات ؟.

إن الملاحظ للوضع الذي تمر به المنطقة العربية من أقصى الخليج إلى أقصى المحيط يجعلنا نتوقف كثيرا عند فكرة القابلية للاستعمار، وقبل الخوض في إسقاطها على الواقع

العربي لا ضير في أن نقف قليلا عندها، فحسب مالك بن نبي يرى بأن ظاهرة الاستعمار نتيجة منطقية لظاهرة القابلية للاستعمار ليس بسبب أصول عنصرية كما قد يفهم البعض خطأ، ولكن من حيث توفر شروط نفسية –اجتماعية– تسبب في الوسط الاجتماعي الثقافي عوامل الضعف والعجز داخل الذات الفردية والجماعية، بحيث يضعف جهاز مقاومته وتعجز قواه عن رد العدوان الخارجي، بما يسلمه لقمة سائغة للاستعمار[29].

لذلك فإن الشعور بالوهن والهزيمة يكون نابعا من أنفسنا أو من داخلنا، لهذا فكثيرا ما نجده يستشهد بالآية الكريمة ﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[30]. وهو يرى أن مايحدث بأنفسنا من هوان وضعف، المستعمر هو المتسبب فيها، فمثلا أثناء الحقبة الاستعمارية للجزائر عمل المستعمر على تشويه النفسية الجزائرية من خلال تسميتهم بالأهالي، أي أفراد بدون قيمة وليسوا مواطنين لهم كرامتهم وحقوقهم، وبالتالي هذا الوضع خلق في أنفسنا نوعا من الرضوخ من خلال قيامنا بقياس أنفسنا وفق مقياس المستعمر لنا. وبالتالي في هذه الحالة يفقد المجتمع توازنه، ويبحث عن نماذج يبني عليها نهضته، لكن هذه النماذج في الأخير ما هي إلا الأفكار الغربية ونمط الحياة الغربية والثقافة الغربية التي يتصورها الفرد الجزائري والعربي بمثابة القدوة المثالية التي تمكنه من التطور، وهنا تبدأ مرحلة التقليد وهذا نوع آخر من الاستعمار غير المباشر، والذي يعمل في نفس الوقت على تعزيز الإحساس بالنقص تجاه الآخر، مما يجعله في الأخير لقمة سائغة من جديد، ومن السهل السيطرة عليه وإعادة استعماره لكن هذه المرة بقبول من المستعمر نفسه وبأشكال وأنواع متعددة[31].

وما يعزز فكرة القابلية للاستعمار عولمة الأفكار ونشرها، ويتجلى بوضوح في الجانب الثقافي والفكري، حيث أصبحت النظريات والأفكار الغربية هي المحرك والمفسر للأوضاع العربية، دون أن ننسى التأثر الكبير بنمط الحياة الغربية بداية من الملبس والأكل وصولا إلى طريقة التفكير والتخلي عن الدّين تحت فكرة العلمانية والعولمة وحوار الحضارات، والتي ما هي في الحقيقة إلا آليات جديدة لاستعمار جديد، لكن هذا الاستعمار ما كان ليتجرأ علينا مرة أخرى لو كنا أقوياء، وهنا يبرز صدق التحليل الذي جاء به مالك بن نبي[32].

4- شبكة العلاقات الاجتماعية:

ناقش مالك بن نبي قضية شبكة العلاقات الاجتماعية في مواضع متعددة من أعماله الفكرية، حيث أكد أن العمل التاريخي الأول الذي ينجزه مجتمع ما ساعة ميلاده هو نسج شبكة من العلاقات، فالمؤشر الأساس الذي يدلنا على درجة قوة أو ضعف المجتمع هي تلك هذه العلاقات التي تحافظ على وجوده التاريخي باستمرار، ولكن لا يكون هذا إلا بتحديد موقع كل فرد في المجتمع بالنسبة إلى غيره من الأفراد ودوره الاجتماعي المنسجم مع مؤهلاته الفردية والفطرية والمكتسبة[33].

وعلى هذا الأساس فإنه لا يكفي للمجتمع أن يكون غنيا بأفكاره حول نموذج الفرد والمجتمع اللّذين يريد أن يبنيهما ليضمن قوة بنائه، إنما المسألة متوقفة على وجود شبكة من العلاقات على شكل قانون اجتماعي وأخلاقي ينظم المواقع الاجتماعية والأدوار والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد المكونين لهذا المجتمع[34].

ونظرا للدور الذي تقوم به شبكة العلاقات الاجتماعية في بناء المجتمع التاريخي، اعتبر "بن نبي" الوضعية التي تكون عليها هذه الشبكة بمثابة المرآة العاكسة لدرجة تطور المجتمع أوتخلفه، فلا يقاس غني المجتمع بكمية ما يملك من الأشياء، بل بمقدار مافيه من أفكار.

لذلك فتطور المجتمع مسجلا كما وكيفا في شبكة علاقاته، ومن الأمثلة التي ضربها "بن نبي" حول هذه القضية، وضعية المجتمع المسلم في القرن السابع الميلادي حيث كان علم أفكاره مازال جنينا غامضا، لكنه هزم مجتمعات متحضرة، هزمها في مصر وفارس وفي الشام ولكنه بعد ستة قرون أخرى بدأ في التهاوي والانحطاط رغم أنه كن يملك أغنى مكتبات العالم آنذاك، حيث انهار تحت ضربات شعوب حديثة العهد بالوجود،كالإسبانيين الذين كان عالم أفكارهم لا يزال فقيرا نسبيا، وبذلك نرى أن المكتبات لاتغني من الهزيمة شيئا[35].

فالنجاح لايتم إلا إذا تمكنا من نقل الإنسان من وضعية الفرد الذي يعيش لذاته، إلى وضعية الشخص الذي يعيش لأمته، ليحافظ على استمرارها في التاريخ بناء على مبدأ رسالي وهكذا يظهر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العامل الاساس لبناء المجتمع التاريخي.

هذه بعض القضايا التي رأيت أنها تبدو مهمة وتمس عمق المشكلات الأساسية التي يتخبط فيها العالم العربي والإسلامي، رغم أن مالك بن نبي تطرق إلى العديد من القضايا والمشاكل بشيء من التفصيل، لكن المقام لايستدعي لعرض كل هذه القضايا، وبطبيعة الحال عندما تناول مالك بن نبي هذه القضايا بالدراسة لم يتركها هكذا مجرد طروحات وفقط، وإنما قدّم الحلول لهذه المشاكل والقضايا وفق رؤية استشرافية وهذا ماسنستعرضه في المحور الثالث من الورقة البحثية.

ثالثا: النظرة الاستشرافية لمالك بن نبي في معالجة مشكلات العالم العربي والإسلامي

وضع المفكر مالك بن نبي وفق منهج معرفي تصورا لخروج العالم العربي والإسلامي من مشكلاته، وهذا بعد أن فقد دورته الحضارية، هذا التصور يستند إلى رؤية استشرافية تسعى لبناء دورة حضارية جديدة شبيهة ببعض مجتمعات العالم اليوم كالتجربة الألمانية واليابانية ومن أبرز نقاط هذه الرؤية الاسشرافية مايلي:

1- أهمية الأفكار في عملية البناء الحضاري:

تحدث مالك بن نبي في سياق حديثه عن الثقافة – بوصفها ظاهرة تخص أسلوب الحياة في مجتمع معين – على أهمية الأفكار في عملية البناء الحضاري لأي مجتمع، فهي إما أن تكون سببا في تقدم المجتمع أو سببا في تخلفه، وهذا ما أشار إليه مالك بن نبي بقوله: "إنّ تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع ... إن الأفكار تكوّن في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري، فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار،وإن هذا النظام يتيح لكل مشكل من مشكلاته الحيوية حلا مناسبا"[(36)].

وما تقدم بعض مجتمعات العالم اليوم في مجالات الحياة المتنوعة – في نظر مالك بن نبي – إلا نتيجة إعلائها لقيمة الفكرة، فالمجتمع الألماني على سبيل المثال بعد الحرب العالمية الثانية استعاد كل ما فقده خلال هذه الحرب، وهذا راجع حسب مالك بن نبي إلى إعلائها لقيمة

الفكرة، حيث استطاعت أن تبني عالم أشيائها بنفسها في جميع جوانبها الحياتية، مستوحية ذلك – طبعا– من عالم أفكارها، فغنى المجتمعات لايقاس في الواقع بكمية ما تملك من أشياء، وإنما بما تملك من أفكار قادرة على خدمتها وتطويرها والتأثير فيها إيجابيا[37].

والشيء نفسه أيضا بالنسبة للمجتمع الياباني الذي بفضل عالم أفكاره استطاع أن يسير كما قال "مالك بن نبي" في طريق لعمل نسميه البناء، وقد قام خلال نصف قرن تقريبا من 1868 إلى 1905 ببناء مجتمع وليس تكديس عناصر مجتمع[38].

إن هذا الأمر مهم جدا – في نظر ملك بن نبي – خاصة بالنسبة لمجتمعات التي تعاني أزمات حضارية أو تخلف حضاري، مثلما هي حال مجتمعات العالم الإسلامي اليوم التي ترى أن المسافة بينها وبين العالم المتقدم تكمن في عالم الأشياء، فهو يرى تخلفه متمثلا في نقص مالديه من مدافع وطائرات في حين أن المسألة مرتبطة بعالم الأفكار[39].

فعالم الأفكار إذا هو الذي يحدد بتعبير مالك بن نبي الداء وأسباب أزمة العالم الإسلامي، ويظهر ذلك في مجالات حياتية عديدة (اقتصادية، اجتماعية، سياسية...) متداخلة فيما بينها – على مستوى الواقع – بشكل كبير[40].

2– مسألة الاستثمار الاجتماعي أو الثروة الاجتماعية:

ناقش مالك بن نبي مسألة الاستثمار الاجتماعي في مواطن معددة من كتاباته الفكرية وفي سياق تحليله للآليات المقترحة لإعادة تفعيل كل من الإرادة والإمكان كرصيد حضاري يمكن أن يستخدمها الانسان المسلم لاستئناف نهضة حضارية جديدة، غير أن السياق المباشر الذي استخدم فيه هذه الفكرة هو حديثه عن مشكلة النهوض بالاقتصاد في البلاد الإسلامية، فقد أشار إلى ذلك أولا بعبارة الإمكان الاجتماعي في مقابل الإمكان المالي وذلك باعتبار أن الإمكان الاجتماعي هو الذي يقرر مصير الشعوب والمجتمعات والدول وهذا من خلال الاتكال على الذات[41].

ويشرح مالك بن نبي هذه المسألة حيث يقول بأن مشكلة المسلمين ليست ذات طبيعة مالية، ولا تتعلق بالثروات الطبيعية، بقدر ما تتعلق بتفعيل العامل الإنساني، وإعادة

بعث إرادته الحضارية من خلال تحويل طاقته الحيوية إلى طاقة اجتماعية مبدعة وخلاقة وموجهة نحو الغايات التاريخية الكبرى، والسبب في تركيزه على العامل الإنساني هو أن الموارد المالية قد تصبح غير مجدية إذا لم يتوفر العنصر البشري المؤهل لحسن توظيفها[42].

فالقضية حسب مالك بن نبي ليست قضية إمكان مالي بالدرجة الأولى، ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الانسان، الوقت، التراب، في مشروع تحركها إرادة حضارية لاتحجم أمام الصعوبات، ومن الأمثلة التي صاغها بن نبي في هذا المقام ما قامت به الصين الحديثة صاحبة المعجزة الكبرى، حيث اعتمد اقتصاد المجتمع الصيني في خططه التنموية على مبدأ الاستثمار الاجتماعي من خلال توظيفه للعناصر السالفة لذكر (الانسان، التراب الزمن)، أي أنها عوضت الإمكان المالي بالإمكان الاجتماعي جعلها بذلك رائدة العالم الثالث آنذاك بلاجدال[43].

وبالتالي فإن الطريق الصحيح للإقلاع الاقتصادي وصناعة التاريخ، ماهو في الواقع إلا طريق الاستثمار الاجتماعي، لأن صناعة التاريخ لابد أن تنطلق من الوسائل الخاصة والذاتية مع النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار[44].

والعبرة في هذا ليس الجانب الاقتصادي فحسب، بل في الجانب التربوي، أي أن الإنسان الذي يمارس عمله يدرك من خلال ما يتحقق على يده في المزرعة أو في المصنع أو في ورشات التشييد، أنه يستطيع فعل تحويل الجبال مثل جده الأسطوري (يوكنج youkong) ليذوب في مفهومه المستحيل وتزول من نفسه العقد التي تعطل النشاط[45].

3- استئصال مركّب القابلية للاستعمار:

يرى مالك بن نبي أن تحرير بلاد الإسلام من الاستعمار يبدأ من استئصال مركّب القابلية للاستعمار من أعماق الضمير المسلم، فالقضية منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، لأنه مادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال ولا أمل في حرية مهما كانت الأوضاع السياسية[46].

وبناء على هذا لكي نتحرر من الاستعمار –مهما كان نوعه– يجب أولا أن نتحرر من سببه وهو القابلية للاستعمار[47].

ولهذا مادام هذا المركّب هو أصل من أصول المعضلة الإسلامية والعامل الأساس الذي وفر المناخ المناسب لظهور ما عُرف بعهود الاستعمار، فإن "بن نبي" يعتبر استئصاله واحدا من أخطر الغايات التي ينبغي أن توليها التربية عندنا أقصى ما يمكن من الاهتمام وأن تسعى إلى تحقيق ذلك بكل ثمن، ببناء شخصية الإنسان المسلم من أجل تأهيله لاسترجاع موقعه الكوني الطبيعي كقدوة وقائد حاضر في التاريخ، فاستئصال هذا المركّب هو أحد المفاهيم التربوية المفتاحية في مشروع "بن نبي" للتجديد التربوي الحضاري للعالم الإسلامي[48].

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة التي تناولت قضايا العالم العربي والإسلامي ومستقبله من وجهة نظر المفكر الجزائري مالك بن نبي، يمكن القول أن الرجل قد عايش فترة عصيبة من تاريخ العالم العربي الإسلامي التي تزامنت مع الحركة الاستذمارية التي مست هذا العالم، حيث مكنته من تشخيص الأوضاع، وتحليل ماهو كائن في العالم العربي والإسلامي، وما سيكون عليه مستقبلا وفق رؤية استشرافية حددت معالم الطريق لاسترجاع الحضارة المفقودة وآليات تجديدها، وهذا بعد التخلص من العراقيل التي تقف أمام هذا التجديد الحضاري، لذلك كان لزاما إعادة الاعتبار لهذا المفكر الذي يعد مدرسة فكرية قائمة بذاتها، وهذا من خلال قراءة أفكاره بعمق وتدبر والانتقال بها من التنظير إلى التطبيق.

الهوامش والإحالات

1- سورة الرعد الآية رقم 11.

2- ضياء الدين زاهر، مقدمة في الدراسات المستقبلية، تق: السيد يسين، ط1، مركز الكتاب للنشر القاهرة، 2004، ص ص25-26.

3- ضياء الدين زاهر، مقدمة، المرجع نفسه، ص27.

4- عبد المجيد عمراني، محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي، ط1، منشورات الحبر، الجزائر 2008، ص ص53-55.

5- سورة آل عمران الآيتان 49 -50.

6- رحيم الساعدي، مقدمة إلى علم المستقبل، ط1، ابن النديم، الجزائر، 2013، ص ص34-35.

7- سليمان الكعبي، موسوعة استشراف المستقبل، ط2، مؤسسة قنديل، الإمارات، 2018، ص9.

8- إدوارد كورنيش، الإستشراف مناهج استكشاف المستقبل، تر:حسن الشريف، ط1، دار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، 2007، ص13.

9- الكعبي، المرجع السابق، ص9.

10- رحيم الساعدي، مقدمة إلى علم المستقبل، المرجع السابق، ص36.

11- Edward Cornish, ed., The Study of the Future: An Introduction to the Art, and Science of Under (standing and Shaping Tomorrow's World (Washington, DC: Transaction Publishers, 1977), p396

12- رحيم الساعدي، مقدمة إلى علم المستقبل، المرجع السابق، ص37.

13- جيروم بندي وآخرون، مفاتيح القرن الحادي والعشرين، تر: حمادي الساحل، بيت الحكمة، تونس 2003، ص43

14- العيسوي، إبراهيم، الدراسات المستقبلية ومشروع مصر 2020م، القاهرة: معهد التخطيط القومي 2000م، ص8 .

15- Edward Cornish, op ,cit, pp83-92 .

16- ولد مالك بن نبي بمدينة قسنطينة عام 1925م، دخل الكتّاب في المسجد ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم اللغة العربية، والتحق بعدها بالمدرسة الفرنسية. في عام 1930م سافر مالك بن نبي إلى باريس لمواصلة تعليمه في معهد الدراسات الشرقية، لكن إدارة المعهد لم تقبله بحجة "أنه مسلم جزائري"، وكتب بن نبي عن هذه الواقعة "لم يتم قبولي بالمعهد، لأن الانتساب للمعهد بالنسبة لمسلم جزائري لا يخضع لمقياس علمي، وإنما لمقياس سياسي". ومن هنا يتضح لنا الفكر الناقد والثائر لبن نبي. ولقد ظل يعاني من ممارسات الفرنسيين ضده إلى غاية سفره نحو القاهرة عام 1956م، وكانت الثورة الجزائرية قد اندلعت قبل

عامين، وفي القاهرة كانت له نشاطات فكرية من محاضرات ونشاطات فكرية، وبقي في القاهرة إلى غاية 1963 حيث عاد إلى الجزائر وشغل منصب مدير عام للتعليم العالي وفي عام 1967م قدم استقالته من هذا المنصب ليتفرغ للبحث والإبداع الفكري وفي 31 أكتوبر 1973. توفي بن نبي بالجزائر العاصمة عن عمر يناهز الثامنة والستون مخلفا إنتاجا فكريا متعددا حول مشكلات الحضارة ومن بين آثاره: شروط النهضة، مشكلة الثقافة، الفكرة الأفرو أسيوية، وجهة العالم الإسلامي، فكرة كومنويلث إسلامي تأملات في المجتمع العربي وغيرها من المؤلفات، أنظر: موسى لحرش، استراتجية استئناف البناء الحضاري للعلم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، ديوان لمطبوعات الجامعية، قسنطينة، 2006، ص ص 9-56.

17- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص.19

18- مالك بن نبي،شروط النهضة، المصدر نفسه، ص 75.

19- مالك بن نبي، تأملات في المجتمع العربي، تر:عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1979 ص ص21-22.

20- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي، ط1، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، 2009، ص127.

21- عمر النقيب، مقومات مشروع، المرجع نفسه، ص154.

22- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبدالصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987،ص300

23- عمر النقيب، مقومات مشروع، المرجع السابق، ص 70.

24- مالك بن نبي،وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، ،ط5،دار الفكر،دمشق، 1986، ص154.

25- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص69.

26- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 93.

27- مالك بن نبي، وجهة العالم، المصدر نفسه، ص 94.

28-نفسه، ص95.

29- وفاء لعريظ وآخرون، الفكر الاستشرافي لمالك بن نبي تجاه أزمات المجتمعات العربية المعاصرة، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، العدد التاسع، جوان 2018، ص 387.

30- سورة الرعد، الآية 11.

31- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص161.

32- وفاء لعريظ وآخرون، المرجع السابق، ص388.

33- عمر النقيب، مقومات مشروع، المرجع السابق، ص183.

34- النقيب، المرجع نفسه، ص 183.

35- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، الجزائر، 1986، ج1، ص ص37-38.
36- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبدالصبور شاهين، ط4، دار الفكر، الجزائر، 1984، ص13.
37- موسى لحرش، استراتجية استئناف البناء الحضاري، المرجع السابق، ص173.
38- لحرش، المرجع نفسه، ص173.
39- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق، ص15.
40- لحرش، المرجع السابق، 175.
41- عمر النقيب، مقومات مشروع، المرجع السابق، ص108.
42-عمر النقيب، المرجع نفسه، ص ص 108-110.
43- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، تقديم عمر مسقاوي، ط3، دار الفكر، دمشق،1987 ص ص71-79.
44- لحرش، استراتجية استئناف البناء الحضاري، المرجع السابق، ص203.
45- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المصدر السابق، ص 77.
46- مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص158.
47- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص95.
48- عمر النقيب، المرجع السابق، ص230.